http://nidaulhind.blogspot.in www.nidaulhind.com

العدل في وساطة القاضي الجرجاني

بقلم: د. جلال مصطفاوي - الجزائر

يكتسي كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي الجرجاني، أهمية خاصة، في النقد الأدبي عند العرب، إبان القرن الرابع الهجري. ولعل أهميته ترجع أولاً: إلى ارتباط مؤلفه بممارسة القضاء، مما كان له تأثيرٌ إيجابيٌّ واضحٌ، في معالجة القضايا النقدية، وثانياً: إلى تناوله شاعرا ذاع صيته في هذا القرن، وصار أكبر الشعراء بدون منازع.

ذلكم هو أبو الطيب المتنبي، الذي قال:

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

وقال:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنام ملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جراها ويختصم

وبالفعل كان ظهور المتنبي كما يقول إحسان عباس: "مصدر حيرة كبيرة للذوق والنقد معا، فها هو شاعر يجمع بين القديم والحديث، ويجيء بالجزالة والقوة والبيان على خير ما كان يجيء به القدماء، ويغوص على معاني الحياة الإنسانية غوصًا بعيدًا، ويضمن شعره فلسفة حياة وثقافة".

http://nidaulhind.blogspot.in www.nidaulhind.com

ومن ثم اتخذ المهتمون بالشعر مواقف متباينة من شعره، وانقسموا فريقين متعارضين: فريق يتشيع له، ويفضل شعره على أشعار معاصريه، مثل ابن جني، وفريق آخر يناصبه العداء، وينفي حسناته مطلقا، مثل الصاحب بن عباد، وكان واضحًا أن كلا الفريقين لا يخلو من غلو وتطرف في حكمه، لأنه إنما ينساق وراء أهوائه، وما تمليه عليه شهواته. أو كما يقول ابن فارس: إن الاختيار الذي يزاوله الناس، إنما هو شهوات، كلٌ يستحسن شيئاً حسب شهوته.

أما القاضي الجرجاني (ت366هـ)، فأراد أن يقف موقفا وسطا بين الفريقين، في محاولته إنصاف هذا الشاعر، ورد الاعتبار له، فلا هو من المغالين في التنويه بشعره، ولا هو من المقللين من شأنه، حيث يصرح في كتابه بذلك فيقول: "وليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة، ولا مرادنا أن نبرئه من مقارفة زلة، وإن غايتنا، فيما قصدنا، أن نلحقه بأهل طبقته، ولا نقصر به عن رتبته، وأن نجعله رجلا من فحول الشعراء".

والوسطية عند القاضي الجرجاني ـ كما يدل عليها عنوان الكتاب ـ جاءت نتيجة الدفاع عن المتنبي، ومن ثم، فهي تمثل الأساس الفني الذي اعتمده في جملة القضايا النقدية، التي عالجها في كتابه. ويستند الجرجاني، في وسطيته إلى مبدأ عام من مبادئ الإسلام، مؤداه أن التقصير صفة ملازمة للجنس البشري، وأن الكمال لله عز وجلّ، إذ قال الله عز وجلّ: "وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (التوبة، 102). وقال تعالى أيضا: "إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ" (سورة هود، من الآية114).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل ابن آدم خطّاءٌ، وخير الخطّائين التوّابون" (رواه ابن ماجة). ووفقا لهذا المبدأ، ينتهي القاضي الجرجاني إلى القول بأن الحكم النقدي السديد ينبغي أن ينصب على البحث عن مواطن الإجادة لدى الشاعر، وإبرازها للعيان، والتنويه بها، كما ينبغي غض الطرف عن المساوئ القليلة، فيقول في كتاب الوساطة: "وللفضل آثار ظاهرة، وللتقدم شواهد صادقة، فمتى وجدت تلك الآثار، وشوهدت هذه الشواهد، فصاحبها فاضل متقدم، فإن عثر له من بعد على زلة، ووجدت له بعقب الإحسان هفوة، انتحل له عذر صادق، أو رخصة سائغة". ويبرر القاضي الجرجاني مشروعية وسطيته، بين المتنبي وخصومه، بما يوجد بينهما من صلات ثقافية، واهتمامات مشتركة بالعلوم والآداب. ولعله استوحى ذلك من قول المتنبي، لسيف الدولة، يذكره برباط النسب، الذي يربط بني كعب بعشيرة سيف الدولة:

لهم حق بشركك في نزار
وأدنى الشرك في أصل جوار

فاستعار منه هذا المعنى للتعبير عن نسب من نوع آخر، ألا وهو نسب العلم والأدب، الذي لا يقل أهمية عن النسب الحقيقي، في تهيئة أسباب التقارب بين العلماء والأدباء، وتقوية الوشائج بينهم، لأن العلوم كما يقول القاضي الجرجاني "لم تزل -أيدك الله- لأهلها أنسابا تتناصر بها، والآداب لأبنائها أرحاما تتواصل عليها، وأدنى الشرك في نسب جوار".

ومن ثم يثور القاضي الجرجاني، ثورة هادئة على الأساليب النقدية التي كانت متبعة في عصره، ويستنكر ما تقوم عليه من أسس، لا تمت بصلة إلى روح العلم والأدب، فيرفض بشدة جنوح أصحابها للهوى والتعصب، وإصدار الأحكام الجزافية المسرفة في التعميم، المبنية على التحاسد والحزازات الشخصية، مما يتنافى مع طبيعة الأدب والأدباء، ويعد جناية على الأدب والعلم. ولم يكتف القاضي الجرجاني بالتشديد على تطهير المجال النقدي والأدبي، من نزعات الحسد والتحامل والتعصب، بل كان له تصور واضح عن البديل، بوصفه آلية أساسية لتصحيح المسار النقدي، من منطلق مبادئ محددة، لعل أبرزها (العدل)، إذ يقول في كتابه: "... ولكن الذي أطالبك به، وألزمك إياه، ألا تستعجل بالسيئة قبل الحسنة، ولا تقدم السخط على الرحمة، وإن فعلت، فلا تهمل الإنصاف جملة، وتخرج عن العدل صفرا". والعدل، عند القاضي الجرجاني، يستلزم أمرين مهمين: الانتصار لمن وقع عليه الجور، والاعتذار لنقائصه إن كانت موجودة. ومن ثم، فهو يفضل أن يجنح، في معالجته النقدية، إلى المقايسة، بدلا من الموازنة، لاتصال الأولى بالعدل اتصالا مباشرا.

ويوجه القاضي الجرجاني في معرض دفاعه عن المتنبي، ومحاولته إرجاع النقد إلى جادة الصواب، سهام نقده إلى بعض اللغويين كالأصمعي وأبي رياش القيسي، وغيرهما ممن حادوا عن العدل، الذي هو أساس الحكم النقدي عند القاضي الجرجاني، ويكشف أنهم، إنما يصدرون في نقدهم للمتنبي، عن أفكار مسبقة، وأحكام قررها الهوى سلفا، حتى إن أحدهم قد يعجب

http://nidaulhind.blogspot.in www.nidaulhind.com

بشعر يسمعه، فإذا ما علم أن قائله المتنبي، أو غيره من المحدثين، غيّر رأيه فيه، وتنكّر له، واستحال إعجابه، بقدرة قادر، استهجانا واستخفافا، على غرار ما كان يفعل ابن الأعرابي في موقفه من شعر أبي تمام.

ويمهد القاضي الجرجاني للحديث عن معايب المتنبي ومحاسنه، بالإشارة إلى أنه ليس من العدل في شيء، إنصاف شعراء آخرين كالبحتري، وأبي تمام، وابن الرومي مثلا، والتنكر لشعر المتنبي، علما بأنهم جميعا مشتركون في الجمع بين الرداءة والجودة في أشعارهم. وهو بهذا يؤكد تمسكه بالفكرة التي بنى عليها وسطيته، والتي مؤداها أن ارتكاب الأخطاء -وإن تفاوتت قلة وكثرة- ظاهرة عامة لدى الشعراء، قديمهم وحديثهم، ومن ثم، فإن أخطاء المتنبي أمر عادي.

ثم يشرع في عرض نماذج من الأخطاء، التي وقع فيها المتنبي، وعابه عليها خصومه، سواء منها ما اتصل بالتراكيب، وما اتصل بالتعقيد اللفظي والمعنوي، وغير ذلك، مما يكرس منحى الاتجاه اللغوي للنقد في عصره... من ذلك قول المتنبي:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا
قلاقل عيس كلهن قلاقل

وقوله:

غثاثة عيشي أن تغث كرامتي
وليس بغث أن تغث المآكل

فالنفس لا ترتاح إلى هذين البيتين، والسمع ينبو عنهما، لما يفتقران إليه من فصاحة بسبب الثقل الناتج عن تكرير القاف في البيت الأول، والثاء في البيت الثاني. وقوله:

أحاد، أم سداس في أحاد
ليلتنا المنوطة بالتنادي

حيث استعمل "سداس" قياسا على "أحاد" مخالفا بذلك ما روي عن العرب. كما صغّر ليلة ثم وصفها بالطول، الأمر الذي جعل المعنى متناقضا. ويحاول المتنبي أن يخترق جدار العرف، والمواضعات، ليبرز الشيب في صورة آسرة، فيقول:

ضيف ألم برأسي، غير محتشم
السيف أحسن فعلا منه باللمم
أبعد بعدت بياضا لا بياض له
لأنت أسود في عيني من الظلم

فيصطدم بردود فعل بعض اللغويين والنحاة، الذين ركنوا إلى المعايير القائمة، ولم يستأنسوا بمثل هذه الصياغات البكر، فعابوا عليه مخالفته للقاعدة العامة، التي لا تجيز صياغة "أفعل" التفضيل من الألوان، غير ملتفتين إلى جواز ذلك عند الكوفيين.

فالقاضي الجرجاني، يقر بكثير من هذه الأخطاء، ويرجع أسبابها إلى التعسف وسوء الترتيب، والتعمق، ولكنه ينفي أن يكون ذلك من قبل المعنى وشرفه. ثم ينتقل إلى ذكر مزايا المتنبي، المتمثلة في العديد من نماذج شعره، فيورد منها ما يراه جميلا رائعا مثل:

يا أعدل الناس، إلا في معاملتي
فيك الخصام، وأنت الخصم، والحكم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجة مهجتي من هم صاحبها
أدركتها بجواد، ظهره حرم
رجلاه في الركض رجل، واليدان يد
وفعله ما تريد الكف، والقدم

وهي أبيات يمجد فيها الشاعر تمجيده لسيف الدولة، وينوه بعدله مع الناس كافة، ما عدا شخصا واحدا، هو المتنبي، ويدعم هذه العلاقة الفريدة من نوعها، بالقول: إن ممدوحه صار(خصما وحكما) في آن واحد. والمتنبي كعادته لم يدع هذه الفرصة تفلت من بين يديه، فاستطرد إلى تأكيد ذاته، برسم صورة بيانية خاصة به، وأخرى بحصانه، وعلاقته به.

وفي الختام، فإن القاضي الجرجاني من النقاد الشعراء (ذكر له ابن خلكان ديوان شعر)، ولعل هذه الشاعرية، هي التي حالت دونه ودون الانحراف إلى متاهات ما يعرف بالنقد العلمي، المرتكز على القواعد والنظريات في المقام الأول، والمستند إلى أساليب المنهج الفلسفي. فهو -وإن أفاد من العلم على طريقته- إلا أنه ظلّ محافظا على خبرته النقدية في جمال الشعر، وأثبت قدرة عالية على تحليل الشعور الجمالي، ولحظ النقاط التي يلتقي فيها الشعراء في المعنى الواحد. ومبدأ العدل الذي سار عليه، في ما كان يصدر من أحكام، ويعالج من قضايا، إنما يحمل في طياته كثيرا من ملامح التأثر، في تفكيره النقدي، باتصاله بالقضاء: فقد تولى القاضي الجرجاني منصب القضاء للصاحب بن عباد.